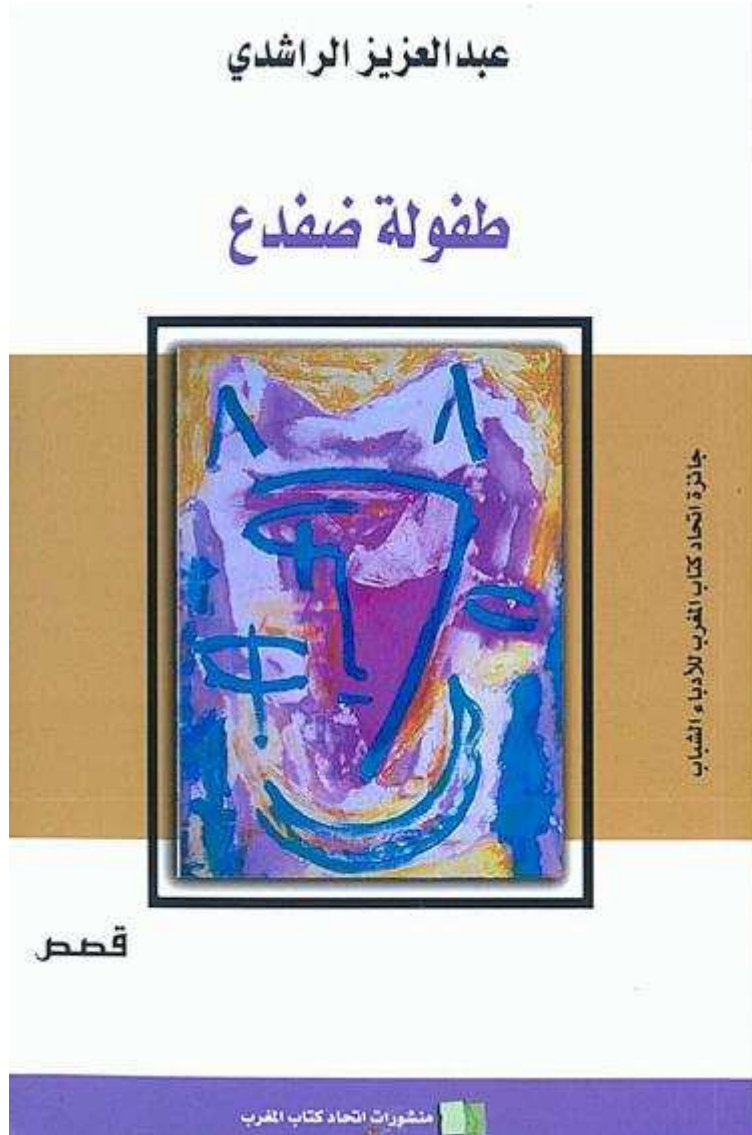


المجموعة الثانية
الفائزة بجائزة اتحاد كتاب المغرب
لعام 2004



تم تحميل هذا الكتاب من موقع اتحاد كتاب المغرب

www.unecma.net

إلى لا زهور . أمي

طفولة ضفدع

السماء حبلى بالغمام .

وسط المراح أفق

أتأمل الغيوم وحدي

هي ليست هنا، ضفدعتي ليست هنا، وجودها كان سيمنحني فرصة أجمل .

أتأمل الغيوم ، على صفحتها أرسم كائنات كثيرة: كلابا بيضاء، أرانب، أحصنة بقوائم زائدة. . .

تتكاثف الغيوم، تشرع في الانمحاء، تبدأ زخات المطر .

ضفدع يقفز هنا وهناك

أتذكر ضفدعتي: بجهتها الزائدة، وعينيها المحدثين بإصرار

سهام ضفدعة .

السما صافية

البرك في كل مكان

أخرج .

جدتي حذرتني من الحفر

أذهب لاصطياد الضفادع

سهام لن تذهب معي، لا شك أنها تتجسس من وراء الباب .

رفقة الأطفال، أسوق خطاي باتجاه الساقية .

نصل ونتعقب الضفادع. صديقي يضغط على واحدة، جلدها يرفض أن يتمزق .

يضغط .

الضفدعة تنبطح، ترفض أن .

أهتدي إلى فكرة

أتأمل الضفدعة

وجهها وجبهتها يختلطان بوجه وجبهة سهام

سهام رفضت المحيء معي

أرفع العصا وأهوي

طفولة الندم

لماذا يفيض من جسدي - كلما مررت بباب السؤال - شيء هلامي غير مفهوم

السبب واضح :

فحين مسحت "القبالة" جسدي الصغير بفوطة

كنت غير راسخ الشكل وكانت تعلم

كنت أحتاجها أكثر من أي وقت وكانت تعلم

كانت أمور كثيرة في الحياة بانتظارها وكنت من ضمنها :

كأس الليمونادة الذي قدّمه لها أبي في قيظ الظهيرة

الزغاريد في كل مكان . . .

دجاجاتها ، خبزها الساخن الذي تجهّزه للسوق الأسبوعي

حوالة شهرية من ابنها المسافر إلى الغرب

ولادات أخرى تعرف توقيتها جيدا وتقيس جودتها بعطايا الأهل

وصفة الأعشاب "البلدية" كل ليلة اتقاء الفتنة ووجع الظهر
معدتها الخاوية التي تصحُّ بها وتمناً
حكمتها المعتادة التي تطلق في كل سبيل "اللي فيه الفز كيقفز"
حينها إلى زوجها رغم مرور الحول على عظامه في القبر
برنامج وتوازن يومي يقيها قيد الحياة ولا تفصح عنه
كل شيء لديها منظم
عدا إحساسها الخفيف بالذنب تجاهي
فقد تذكرت بكثير من الدهشة والحزن
قبل أن تنحرف عبر الزاوية الأخيرة باتجاه بيتها
بأن صرحتي
كانت خافتة وأنا أعبرُ إلى دنيا الضيقين

زاكورة 2001

ما تفعله بنا الصور

(كل شوق يسكن باللقاء. . .
لا يعول عليه) ابن عربي

1

كان يتطابق الشعر عنده مع الصورة، كان يؤمن أن في كل وجه أو زاوية استعارة ما. وحين اكتشف أنه مخدوع بالاسترسال، و بعد أن ضايقته الحكاية، بدأ يُدبج خلفية كل صورة بمخاطرة أو قصيدة: نوع من التعويض الذي سيغنيه لفترة ثم لن يلبث أن تطحنه الدوائر. هل كتب يوماً قصيدة؟ لا يُتعبه السؤال، فقد بدأ كل شيء منها. من الطفولة أم من القصيدة؟ هولا يدري، فطفولته قصيدة تركض و تسير مع الريح، تنمو كما يُفدَّر لها أن تنمو: تلقي بظلالها على الأشياء والوجوه وتمسح كل ركن من أركان الدنيا. كان يسير فلا يهمله ما بين يديه، بل ما خلفه، لا يلقي اعتباراً سوى للكؤوس التي لم يترع، للوجوه التي لم ير، للرووس التي لم يمسخ عليها جنو، للأحلام التي لن يحقق. . . لم يكن يهمله في الحياة سوى الاحتمالات. وأي احتمالات؟ أليست بالذات التي تفتح البوابة على التيار؟ تلك التي لا تثبت على شكل أو معنى كما الحياة والتاريخ، يقرأهما الناس كل يوم بألف صورة ووجه؟ كم هو الوجود مغرم بالظلال والانعكاسات! ألا يموت شوقنا لأشياء كثيرة تسكننا حال الإحاطة بها؟ لكن من يستطيع إدعاء إحاطة ما؟! لهذا يواجهه مأزق الوجود على الدوام؟ ألهذا يتعفف من كل شيء: لأنه لا يستطيع إدراك الوجود في كليته ولا ترضيه مصلحة أو معرفة مبتسرة؟

لا يني يلتقط من الحياة الصورة تلو الصورة ، يشحد بما صميم ذهنه وتشكل خلفية حركته وكلامه كصفحة النهاية في كتاب . صورٌ تكون في الأغلب الأعم لما لم يتحقق، تكون الشعر الذي لا يُسمّى . وجد نفسه بالصدفة يفعل ذلك . قال لنفسه يوما أن كل هذا الوجود ربما لا يكفيه لذلك يخلق أركاناً لوجود مواز يحقق فيه ما ليس في الإمكان- لا يُحقق ، بل يوشك- حتى لا تنعدم احتمالات أخرى للنهاية تُفسد عليه الدوائر . واطمن لفترة طويلة من حياته إلى الأمر، مدركا بإحساس المخدوع أنه سوف ينفذ عنه هذا الإحساس الخفيف حين يُقرر، لكنه استيقظ على وهمه حين حاول وأعاد : لقد اكتشف أنه كان مخدوعا ، وأن ضباب الأشياء كان يسكن وجوده قبل أن يكون حتى، وأنه لا مناص من الاسترسال في اللعبة . ربما راوده هذا الإحساس قبل هذه الوقفة فاستخف به . لماذا إذن تعب حتى الاحتناق من التفاف الاحتمالات؟ لم أنعبته حتى بحث لها عما يُلجمها؟ .

كان قد أحس في لحظة ما عياء روحه من كثرة الصور المخزونة في داخله، وليهرب من مآزق وجوده الذي يحاصره، لينفض روحه التي تبدو له ثقيلة كألبيوم قديم اشترى آله تصوير وبدأ في التجول . التقط صوراً لكل شيء: أمكنة ووجوه ، شجارات وعناقات ، حيوانات تمشي على أربع وأخرى تمشي على إثنين وأخرى تزحف دون حركة سار في الطريق لا يهتم سوى لما يُدرُّ التفاصيل، يأخذ صوراً لكل شيء كي يهدأ باله قليلاً ولا تعود تطارده الصور، وقتها يتذكر قصة ذلك الرجل الذي يحكي عنه الجميع نكتاً، فتجول في يوم حاملاً قلماً ودفترًا ليدون كل النكت، وفي ظنه أنه يعقلها بتلك الطريقة فلا يعود أحد لحكايتها . ظل يتعقب الصورة حين تكون ساخنة: حين لا يُهيأ لها . في عُرفه تكون أحلى وأكثر قوة، ويسيل منها سر الوجود الكبير الذي يُتعبه ويُغص عيشه . حتى تمحو البرزخ الفاصل بين الصورة و الاستعارة، حتى تكون عفوية وشعرية تُقرأ بالعين .

الصورة حسية أيضاً، والأفضل أن يعلقها على جدار أو يضعها داخل ألبوم من أن تعلق بروحه، على الأقل، سيرتاح حين ينام ، ولن تطارده أطيافٌ يظل يلونها الضباب طوال الوقت . لقد كانت وظيفة الكاميرا إزاحة الشبح الذي ظل يسير وراءه لاهثاً دون توقف ولا يعلم إلى أين يقوده . شبح اسمه ما لا يُرى، أو ما يُرى ويتلون بأكثر من وجه، ذلك لأن الصور تلبس أكثر من صفة ، وتتخفى بين تجاعيد الروح، تشير التمثل بين ثناياها .

2

هو الآن في الغرفة ولا مناص بعد أن تواردت الخواطر أن يتأمل ألبومه الكبير الذي تراكم عليه غبار الأيام . ليكتشف كم تورط مع الشعر ، وليرى إلى أي مدى أخرجته اللعبة من مصيدة التأمل الذي سكنه منذ الأزل . فلقد تعود أن يُفرغ كل طاقته في التقاط المشاهد وتأملها حين تحدوه رغبة في التأمل . الشعر يأتي في اللحظات التي يختلج مساره فيها ، وقتها تكون الكاميرا جاهزة لتُحفظ الصورة ولا تترك لها فسحة للتسلل إلى حيث ستتمو وتطوق الروح . الألبوم مليء بالصور، وقد أحس منذ مدة بالمآزق الذي وضع نفسه فيه: لم تعد تكتفي الصور بذاتها، فقد صار مدمناً، ولم تعد تقبل أن تتحفظ سوى لفترة، ثم تخرج من قمقمها وتعاود الظهور . وقتها، مرتجفاً، يمسك القلم ليخط بضع كلمات وراء الصورة : أسلوب أراحه لفترة، لكنه لا يعلم بالتحديد عمق المتاهة : ألن تستعبده هذه الطريقة فيضطر للشكلين معاً، كما يضطر المدمن إلى زيادة الجرعة مع المدة لينتهي به المطاف إلى سبات طويل؟ من الأفضل أن يُزيح عن ذهنه هذه الخواطر، فباللحظة لحظة سكون وتصالح مع وجوده قلماً يظفر بمتلها، فليحاول أن يسترجع بعض

المشاهد عله يظفر ببرزخ ملك عليه حكايته: كيف تتحول الكائنات الحية إلى جماد ثم تحيا من جديد. كيف يكون هذا البعث الخاص في دنيا العدم. . .

استراح على مقعدٍ قريب، وبدأ ينفض الغبار عن ألبومه ثم يفتحه. . على ظهر الصورة الأولى، لم يكن من العسير أن يتهجدى حروفا يعرف جيدا أنه من خطها

(يا للصوّر

تكبر كالخميرة بين أيديهم

ولا يسألونك شيئا

تُقشّر رغبتك في الوجود

أن تكون. . .

أن تكون الأصعب الصغير لعازف البيانو هناك في الأغنية التي تلملم شرح طفولتك ، لأن تكون شرنقة تواكب أحلامها في الصعود من زبد التجربة، أن يضيء سماء وجودك شبح رؤياك. البحر البحر. . "البحر وحيد كأعمى" كما قال بورخيس. أن تحييء في الدرج رحابة الحب .

احتجاجا على زغب العالم

سأقبل نفسي كما أنا

زائغ النظرة كفأر يسكنه القط

ملتاعا كفكرة الخلود

وأسكن هذا البحر)

قلّب الصورة : سيحاول أن يرى مدى تطابقها مع تلك الخواطر . هاله التناقض بين الكلام والمشهد(هل من تناقض؟) فقد رأى على وجه الصورة حصانا تمسك به من المقدمة فتاة تضحك بطلاقة . هو خارج إطار الصورة ، هو من أمسك الكاميرا -في ظهيرة أحدٍ كما استعاد -قرب البحر ليلتقط الصورة ، فكّر مليا كيف خطّ ذلك الكلام! وبدا له أن ذلك المشهد كان على شكل ملتقى طرق تحولت فيه الكتابة عن مسارها حيث لم تعد تضبط الصورة ولا ارتعاش الروح التي تخلفه ، لا شك أن هذه اللقطة برزخ ألقى به في يم المتاهة التي خافها وفكر فيها للتو. . . كان عليه إذن أن يجعل هذه الصورة التي مزقت علاقته بالمشاهد أسفل الركام ، على الأقل، انضباطا للتأريخ، كما لو كانت توقيعاً، أو مفصلاً، كي يعرف كيف بدأت هذه الحكاية وكيف انتهت. وتساءل: هل كان يكرر مافعله الإنسان حين بدأ التدوين؟ حتما أخطأ الإنسان حين بدأ التدوين، لأنه بذلك لم يؤرخ سوى لذنوبه. . .

عاد للصورة و تذكر على نحو واضح -كما لوأن الصورة لا تكفي- أنه رجع إلى المنزل وكان لا يزال محملا بأنفاس البحر ورائحته. كتب تلك الجمل دون تفكير، حاول أن يكيف الصورة مع المعنى ليفهم شيئاً ما، ليحقق الانتماء لهذا الشيء ، ليعود قليلا إلى الانضباط الذي كسرتة الصورة: فكر ساهما أنه داخل الصورة: في ذهن الفتاة التي ترفع الريح شعرها وهي تمسك بالحصان المتدمر. . .

في صورة أخرى ، لم ير سوى ظهرها، قرأ قصيدة كتبها على عجل كما بدا من خطها المتسرع :

(أنا البحر خيالك اللاهب

لماذا تغامرین في صوري

حتى وأنت غائبة؟

ينبغي ربما أن نتذكر جيدا

كل المساءات

واحتمالاتها المؤجلة

حتى يفصح بحرك هذا

عن احتماراته المعلنة

كوني صريحة كالشهوة

وسأكون جديرا بالثقة)

كان بوده أن يقلب الصورة، ليرى مدى تناسبها مع صورته الشعرية المبتوثة على ظهرها، وليعرف سبب إصراره على البحر والنساء . هل كان من الصدفة أن يقرأ قصيدتين متتاليتين كتبهما عن البحر والنساء؟ هل من شبه بين البحر والنساء في هذا العصر؟ ساذج من يقول ذلك، فقد أمارت العصر اللثام عن كل أسرارهن، والقدماء كانوا يشبهون المرأة بالبحر لأنهم كانوا يجهلون سبب التقاليد والتخلف كما كانوا يجهلون البحر بسبب قوته. لكنه رغم ذلك كان يريد أن يعرف هل تحمل الصورة ملامح امرأة أخرى، أم المرأة ذاتها؟ وتساءل: هل تكون أصيبت صورته الشعرية بالعقم حتى غدا يكرر البحر دون غيره؟ وهل تكون أصيبت الكاميرا بالشلل حتى لم تعد تمسك بغير وجهها؟ ورغم ذلك أتعبته الصور. فلم كل هذا التعب؟ ماذا لو تنوعت؟ هل كان سيصاب بالجنون؟

سوف يجهد نفسه كثيرا وهو يغالب رغبته في تقليد المزيد منها. وسيحلف أغلظ الأيمان أنه سوف يمزق كل الصور غدا. ربما لن يفعل ، قد يذهب إلى أقرب مقهى للإنترنت، هناك سترك الصور على شاشة أول كمبيوتر يصادفه، عالما بيقين أن ثمة من سيراهها، ثمة فضولي ما سيفتح ذلك الملف، عندها تصادفه اللعنة. وتساءل قبل أن ينهض من مكانه: مم جاءه هوس الصور؟ من قلتها في الطفولة؟ أم من كثرتها في الشباب؟

هو الآن في السرير، مدثرا بإحكام كخنفساء داخل القش، لحسن حظها فالبرد قوي بالخارج وصوته يجعله يتكاسل ويستبعد النهوض أو تغيير وضعه . ربما سيغلب رغبته وينام، وربما ستغلبه الرغبة، وقد تمر أيام وسنين كي يدرك أن الأجل هو ما لم نعلم به، ربما سيتعب أيضا كثيرا قبل أن يصل إلى تلك الخلاصة: أن ما كان يحاوله هو تكييف الوجود وضبطه، لكن دون جدوى. ما تفعله بنا الصور هو عكس ما نريد: إنها تحشرنا في النفق وتذكرنا بأخطائنا. على الأقل حين كان يستسلم لخواطره كانت تتجدد، تسير مع الزمن وتمنحه لحظات صفاء، كان ضباب همومه وتأملاته يمارس حقه الطبيعي في الوجود. . . ألا نكون أنايين حين نفرض على أشياء العالم أن تكون كما نريد لها: خارج أذهاننا، وبالشكل الذي يلائمنا. وحين يحدث تلامس ما نهرب كمن يفر من عدوى. سوف يمر الزمن، وهما هو يقف عند حافته، مرتجفا من الحقيقة التي اتضحت له تحت سماء ليل متألئ بالنجوم. خاف أولا ثم تشجع حين عرف

مصيره، سارع إلى التصالح مع الصور، كمن يحزم حقيبة سفر على عجل. رأى جسده يتغير، رأى خلاصة نفسه، رأى الصور تحكم الوجود وتشكل انتظاره، رأى نفسه نبتة لا تتألم، رأى صباحا ودروبا وإيماءات، رأى البحر راجلا، رأى أديبا ينتحر لأن صورته باهتة، رأى صورة أم تعانق حثة ابنها الذي ابتلعه البحر، رأى ورأى ورأى ثم رأى القلعة.

عند القلعة قد يتوقف، هو الآن بين اليقظة والنوم، طعم الفجر في فمه، يعلم أن الصور لن تنتهي، لكنه مطمئن كونه لا يرغب في الدخول، كونه لم يعد يرغب بعد في تقييد الصور، يتكاسل ويلف الغطاء حول جسده، يتأمل صورته الداخلية والخارجية دون وجل، ينام و يباشر صورته وأحلامه، ثم يقوم ليبدأ نهاره الجديد ويُدبِّج -حين توقظه الجلبة التي تولد تحت نافذته كل صباح- صورته الجديدة بخواطر وأشعار.

ما يفعله بنا الرباط

1- باب شالة:

في باب شالة تتوقف الحافلة رقم 27، يتأمل ركاب الناس وهم يتدافعون نحوها كسيل في تراجع، تتداخل الوجوه والأجناس ثم تهدأ فيصعد ويتشبت بالأعمدة، يتنفس الدخان و المشهد المعتاد لبشر يترحلون بين قرية أولاد موسى وقلب المدينة، يتقدم باحثا عن فراغ لجثته المتعبة.

الحافلة مخنوقة، كما ينبغي دائما، لذلك اتجه نحو نهايتها، مدفوعا بأجساد سميكة لم يأخذ منها الزمان حقا ولا باطلا، كانت تدعه الأكتاف والأيدي بعنف، خفي أحيانا، ظاهر غالبا. وفيما كان يخطو، يعوم، باتجاه نهاية الحافلة، متلمسا الأعمدة، معتذرا عما لم يفعل، تتجه نحوه نظرات لا تلبث أن تخبو، فيتعرق وتضايقه ربطة العنق.

كان يلقي بنظره المتسائل على الركاب، باحثا عن مقعد فارغ، وسط رائحة العرق والعطر، مستكشفا ملامح مهمومة، حين اصطدم بكتف الجابية.

هي لم تلق بالا لحادثة صغيرة تعودت عليها، أما هو فحذق في وجهها لبعض الوقت: شاحبة، بنظارتين تغطيان كامل العينين، وكانت مسحة الحزن الطالعة من خلف الزجاجتين بادية. وعلى الشفاه اليابسة المزرقّة، تمكن من ضبط القليل من أحمر الشفاه. بكثير من العناية غطت شعيرات خفيفة جبهتها المندفعة، لكن دون تكلف أو إدعاء. فكّر في مصير امرأة تتجه نحو المجهول.

قدّر في ثوانٍ أنّها عانس، لا خواتم في أصابعها. وقبل أن تتزلق، وتملص من المصادمة بدرية، توقف الأتوبيس فتزل خلق كثير، عنّ له وقتذاك أن يظفر بكرسي، وتمكن فيما استعاد أنفاسه أن يراقبها بوضوح، تعمل بهمة في ثياب العمل القديمة الزرقاء الباهتة، وتمكن أيضا أن يجعلها موضوع تأمله الشخصي.

تخيل كم جسدا ضم تلك الكسوة، في واقع عمل لا يهدأ: الذاهبون فيه أكثر من القادمين. وبدا له جيش العاملات يتناوبن على الكسوة والطرْد والتحرش، ثم تخيل جسدها عاريا دون كسوة، جائعا، ظمّانا للعناق، فاجتاحته الحرارة.

لم تكن على قدر كبير من الجمال، لكنها مقبولة على العموم، لذلك اعتبرها سهلة كالعادة. وضع النقود في يديها ببطء عندما اقتربت وناولته التذكرة، ثم أطلق كلامه الضروري:

-عجبتيني. باغي هُضْر معاك.

للحظة رفعت عينيها باتجاهه، تأملته مليا كما لو اكتشفته للتو، واكتسى وجهها تعبيرا خاصا: اندهاش أم احتجاج؟ ثم هاهو وجهها يتورد: غضب أم حجل؟ لكنه كان قد قطع الطريق الأصعب، وترك نفسه معلقا في فراغ نظرهما.

لم تجب. خفضت نظرهما ومضت.

وهي تعمل، كانت تتجول بحرية في فضاء خبرته جيدا، تمارس عملها محاولة أن يكون طبيعيا دون أن تفلح، تحاور وتجادل، تقطب حين يكون ذلك ضروريا، تحاول إخفاء ارتباكها، ثم يغالبها الفضول فتحول بصرها نحوه، وترسم على شفيتها طيف ابتسامة. يدرك وقتها أن فكرته تعيش معها فيبتسم كمنتصر.

لم تجزم، كانت ابتسامتها بين القبول والرفض، متحفظة كنقطة نظام وسط نقاش، لكنه الدائم الحظوة عند نفسه، اعتاد أن يرى نصف الكأس الممتلئ، لذلك بدأ يرسم الخطط.

ليست سوى مسألة وقت، سوف يصل المحطة عما قريب، ويكون لديها ألف عذر لتغادر عملها قبل الوقت. سيقصدان منزلهما القريب.

الموسيقى خفيفة والكأسان على الطاولة.

يتزع النظارتين ويرفع حصلة الشعر الخفيفة عن الجبهة الشاحبة ثم يعتصر العظام الناحلة.

ما أصعب الأقفال الصدئة. جسدها سيرسم لوحات خرافية في الهواء، ستنقب عن لذة مضاعفة، تمتصها من الأشجار والدروب والليالي.

أما هو، مدفوعا بالواجب، فسيغلق النوافذ كي لا يتسرب صوت الآهات خارج المنزل.

كان غارقا في أفكاره والحافلة تسير حين حدث ما لم يكن في الحسبان...

2-باب الضيق:

جرّب حظك مع أنغام السمفونيات، في شارع محمد الخامس، حين تنمو السيارات باتجاهك والناس "المكرفطين".

تنمو السيارات باتجاه النافورة وحول أذنيك الموسيقى.

هل من معنى لأن تعبر قنطرة النهر؟ لأن تلقي بنفسك في مغامرة غير مأمونة العواقب؟ الحافلة كادت تدهس نهر أبي رقراق والجابية أحلت الطرقات من المارة الذين جاؤوا يقترفون التلصص عليكما. هل من معنى لاختيارها القنطرة كي تصنع مغامرتها؟ يا للهول! تُوقف الأتوبيس وتُلقي بالناس إلى الخارج وتقترب منك ، يملأ عينها الشبق. وأنت ، ماذا دهى حاستك العاشرة، لطالما كنت حذرا. . أوف. . تقف أمامها دون حراك وتتقيد بتعليماتها؟ هل من معنى للعالم الآن حين يمر نهارك كغيره في مدينة الأقنعة؟ قهوة مرة في باليما، وعناوين لا تمنح جديدا . صاحبك لم يأت ، والصحبة قليلة هذه الأيام. تمسح عقب السيجارة، تهنم قميصك وسروالك، تتطلع إلى الخبر الأخير في الجريدة عن رجل مهندس وفتاة تذاكر أوقفت الحافلة التي كادت تدهس النهر وأنزلت الناس وفي عينها شبق الدنيا كاملا. تدخل دورة المياه وتخرج منها، تتحسس جيبيك المنتفخ بالمسودات التي أصبحت تجلب لك السخرية وفضول الناس. تنظر ذات اليمين وذات الشمال كلص ، ثم تُخرج قلما وورقة وتخط عنوان قصتك الجديدة :

RABAT

سلا في يونيو 2001

ما يفعله بنا الطباشير

قريبا سيكون الغبار أهوجا، عدوانيا ومندفعا. سوف تفتح السماء على عالم الخراب. ستتقوض حاسة السمع ولا يتسع المجال سوى لصوت الريح. قريبا سيكون لها العالم، لا يقاسمها فيه غير الصبر. ستأتي كعادتها ببطء ، من بعيد، من الصحراء المترامية الحافلة بالرمل والحكايات سيأتي صوتها واضحا ، لا تغدر ولا تأتي على غفلة من الأمر. معتزة بقوتها كجيش يقرع الطبول على بوابة مدينة. . . أثناء ذلك، أو قبله بقليل سيكون عليه إنجاز مهماته: يجمع تحاضير الدروس بسرعة قصوى، يخفي الحفظة، يضع الكرتون على النافذة المفتوحة على كل الاحتمالات، يرص دعامات الباب ببعض المقاعد، يتيقن أن كل لوازمه محبأة بعناية، ويقصد الزاوية الأقصى من القسم ، ثم كهارب من جحيم ، يستغشي ثيابه حذر الغبار. ملتصقا بالركن يظل ، ويبقى الأطفال في أمكنتهم غير عابئين لما يحصل، يتحدثون ويلعبون وقد اكتشفوا أنهم غير مراقبين. يسمع صوتها في القسم تحول كما تشاء، تصافح الطاولات ووجوه التلاميذ المغيرة و تترع السبورة للمرة الألف من مكائها، تبعثر الدفاتر والكتب، وترأر في مملكة ليست لها، يسمع صوتها فيتماهى في أدنيه مع

الصوت المعتاد لسمفونية عريقة كان يسمعا . بعد وقت تبدأ في الخفوت في الخارج والداخل، تكون قد رضيت تماما بذلك الانتصار، يسمع خفوتها التدريجي داخل ملبسه الملتفة حول رأسه ، يملاً حيزها ببطء ضجيج الأطفال الذي يعلو ويثدا .

يأتيه صخبهم من لا مكان، بعد صمتها يبدأ في تمييزه . يتناثر بطيئا في الأرجاء: ضحكات تراود أذنيه مخلوطة بصيحات واحتجاجات وتوعدات صغيرة. ضجيج هلامي لا يُعبّر عن شيء. لا ملامح له. تختلط فيه الحروف فيكاد يغفو ، وبين الصحو والسهاد تتكاثف الصور داخل رأسه كحزمة من الغبار ويمر شريط يومياته في المدرسة مسرعا تجينه كائنات المدرسة الكثيرة:

(المدير الذي يخاف من كل السيارات ظنا منه أنها الإدارة المركزية، التقارير المطولة التي يكتبها بخطه المثنى عليه ، والتي تتضمن عروضاً ودروساً لم تنجز بناء على طلبه ، مواد المطعم المهترئة الذي يتم التصرف بها "تحت الدف"، صديقه الذي عُيّن في قسم اكتشف أنه جامع للصلاة ومكان لوضع نعش الموتى ، شركات القروض التي تلتسع ظهره وظهر زملائه، كلامهم حول المفتش ورعب الجدد منهم ، زيارة المفتش الأخيرة : حين دخل القسم دون أن يطرق الباب فدخل معه هواء صباحي لسع الوجوه و أيقظ النائمين. . . النقاش الصاخب مع "سيادته" حول الجدادات : المفتش يطلب تفصيلها وهو لا يستطيع تفصيل كل شيء كما برّر. لا يستطيع تفصيل كل ما يشغله: الحركات ، الإيماءات، التصحيح ، غضبه من العالم، فرحه بضحكة طفل أكل السكر أسنانه، هجوم البرد من ألواح النافذة المكسورة، أوجاع منتصف الشهر، هزيمة التلاميذ في كرة القدم، غثيان معلمة حامل ووحمها الغريب، سهولة إحداهن داخل قسم أو مطعم غير مستعمل، تسلط الدوار ومقدم الدوار، لغط الأطفال ، الإحساس بالصداع، اصطفاق الباب من الريح ، رغبة الطفل في أن يبول ، سذاجة واضعي الكتاب المدرسي وأخطائهم اللغوية، حنينه إلى المجلة و معجون الأسنان ، الذباب صيفا والصقيع شتاء، ضباب الوحدة. . . .

يتنبه قليلا كي لا يغفو فتراوده، دون سبب وجيه، النكات الكثيرة التي يحكيها الجميع عن المعلم، تقول إحداها أن معلما اتفق مع تلاميذه على الوقوف وراء المفتش كي يعطيهم إشارة الجواب حالما يضع المفتش السؤال، وحين كان الجواب عشرة، فرّق المعلم يديه معا من وراء المفتش مبرزا أصابعه العشرة فصاح تلميذ: "دلاحة". غاضبا ضرب المعلم يديه كفا بكف فصاح آخر: "مطبوعة". يكركر ضاحكا حتى يهتز صدره ، يخاف أن يراه التلاميذ فيعود إلى وقاره ويظل مستغشيا الثياب ، ويتذكر قصة ذلك المعلم الذي كان يكسر الطاولات ويستدفع بها من صقيع الجبل وذلك الذي بنى فرنا طينيا صغيرا وقف على أطلاله حين قرر الانتقال مرددا الحكمة المغربية "بني وعلّي أوسير أوخلي" وذلك الذي من سخطه وغضبه جعل الحاء خاء للتلاميذ والباء نونا ولم يكتشفوا أمره إلا بعد أن صنع أبجدية جديدة وذلك الذي. . . . تخفت الريح قليلا فيميل نحو الصحو وتراوده ضحكات الأطفال لكنها تشتد من جديد فيغطي رأسه ويستزيد من صورته:

(بنات الدوار المتحركات حول البئر عند العتمة ، رغبته الأكيدة في شيء ما يكسر هذا السكون، شعره حول الأرثوجراف ويديها المدبلجتين بكل اللغات- اللذين كان يضجر منهما والآن يحن إلى التفاهما حوله - بكائية أصدقائه على المانضا المنقوبة وسخريتهم من رسومه التي تضم أشباحا لنساء يظل يحلم بهن طوال الوقت، وقتهم الذي يقضونه في النميمة، اكتئابه لأنه يراهم يتراجعون إلى الخلف ولا يعبئون بأنفسهم فيخاف أن يصبح يوما نسيا منسيا، يخاف أن يصبح يوما هيكلا يعاني الهلوسة والخوف من المفتش والسكر وشركات القروض ، أحلامه بالمدينة والحمام والمقهى والجريدة . الملف المطلبي في النقابة : حين يتكلم الجميع ويصمت هو متمعنا ليس في كلام المناظلين ولكن في حركاتهم وفي انشغالهم كي يصبحوا يوما كائنات روائية، الأنف الطويل لكائن طباشيري لا يعرفه لكن يراه مواظبا على الحضور ، يفكر في

استثمار أنفه الديبورجراكي في مقالة يطالب فيها الدولة بزيادة في الأجرة لأن الأنف يكلف صاحبه لاشك مبالغ طائلة للصيانة، حين ينصت بانتباه لرجل آخر يدحرج عينيه كلما تكلم ويسب جميع الناس متوعدا بمعارك لا تأتي. يتخيله يدحرج عينيه طوال الليل ويسب التيارات السياسية على أشكالها، ويسب صاحب الأنف الذي لا يني يختلف معه حول القضايا. . . . كان يرى وقت التأمل أن الخلاف بين صاحب الأنف وصاحب العينين ليس سياسياً بل حاسوياً "نسبة للحاسة". . . .

حين يحس أن الريح انتهت تنقطع الصور، يراوده خاطر غريب: يحس روحه رخوة، تماماً كاسفنجة مبللة، يخرج من محبته ولا يهتم لنفض الغبار لأنها ستعود بعد دقائق، يهتم أكثر لبعض الهواء خارجاً، يعود أدراجه بعد أن ييصق ما علق بلحقه ويصيح في الجميع كمن سيارز في مسلسل تاريخي:

-أنهيتهم . . . ؟

حذاء المجتمع المدني

هذه حكاية تقلبت في ذهن رجل حتى مُسخت. ما طالها شحوب التكرار ، لكن كاد. وهي ليست قصة، القصة أجدى بكثير، القصة وهم كبير. وإذا كان الشعر موجوداً في خلف ما كما قال يوماً شاعر عظيم فإن القصة على الأرجح كذلك. كل كتابة هي في ذلك الخلف، لكن الحكاية لا تحتاج إلى أمام أو خلف، إنها موجودة في كل مكان، مطروحة على الطرقات: حكايات في المقاهي والجرائد والإذاعات، في البارات وأمام المدفأة. في مقرات الأحزاب والنقابات، في التلفاز والراديو والحدائق. و لكن الحكاية قد تؤول إلى قصة عندما تصبح عسيرة موهة عجوزاً، مختلفة .

هذه حكاية حاول ان يجد لها صاحبها عنواناً ، وعندما فشل سماها : حذاء المجتمع المدني. كاتبها رجل يعيش التاوي في الأشياء، والحكاية مبنية على حقيقة او بعض حقيقة .

كان الكاتب يسير في الطرقات ويفكر في بدايتها. وحيداً، مهموماً كمن فقد ظله، فأصعب شيء على كاتب بداية نص، إنها مهينة وتجلب المتاعب، خصوصاً حين يتعلق الأمر بسرٍ ما. وهذا الكاتب يتداعى ما إن يكتشف البداية، لكنه يعاني إذا تصلبت: القصة أنثى. . . .

كان القاص يسير مفكراً في الحذاء وعلاقته بالمجتمع المدني. ولكون حذاءه جديد، فقد فكر في بداية حية صادقة يستثمره فيها .

سنقول أنه اختار مقهى شعبياً يجلس فيه صديقان يدرشان حول القصيدة. لكن أحدهما، وهو الكاتب نفسه، والذي لا يستطيع سوى أن يحشر نفسه في كل نص، سيظل متسامياً، يعيش عالمه، ويفكر في حذاءه اللامع الجديد ، الذي لا يحتاج إلى مادة تُلمعه: تكفيه خرقة عادية يمسحها بها ل يبقى جديداً على الدوام، كما أكد البائع. أما صديقه ، فظل يطرح طوال الجلسة تصوره للقصيدة، وحين ينحني ليلتقط شيئاً ما يفاجأ بحذاء صديقه فيصبح موضوع الجلسة بدل الأدب .

فكرة الكتابة عن الحذاء ليست تافهة أو سيئة كما قد يرى البعض، فتأمل أحذية الناس طريق نحو إدراك هوياتهم: الأغنياء مثلا ينتعلون أحذية غالية، وتكون في الغالب ملمعة، وتعطي انطبعا جديا بالاحترام. أما الفقراء ، فأحذيتهم بالية من كثرة المشي ويغطيها غبار المسافات. وحتى لو حاولوا تلميعها تتكرش .

ستتطور القصة في ذهن الكاتب، فيفكر في مزايا حذائه العجيب: كيف ساهم الحذاء مثلا في إذابة الجليد بينه وبين نورا. كانت تلتقي به غاضبة، ثم تلين حين ترى حذاءه الجديد اللامع .

أما في الحزب، فقد كان الحذاء يحل المشاكل حين يسود الخلاف النظري وتتعدد الأمور، فقد كان يرفعه ويهوي به على الأرض فيسود الوجوم: كان الحذاء إذن وسيلة بيداغوجية للإقناع .

بعد قراءة ما كتب، سيكتشف تفاهة البداية والمضمون. القصة نسق، وكل ما يرد فيها ينبغي أن يخدم الحدث. فما علاقة الشعر بالحذاء؟ ثم، ألا يبدو الانحناء لرؤية الحذاء في حديث ما نوع من إسقاط الطائرة في حقل الحكاية؟ ليبحث إذن عن بداية مريحة مناسبة .

سوف يبدأ هذه المرة، بعطف زائد، مفيدا من قدرته على الحلم، فيكتب عن المطر، وعن زقاق مغلق، وأناس يفرون من الرذاذ، لكنه لا يهرب. ودون أن يتوقف المطر، تفتح السماء فجأة فتسقط أشعة الشمس على جسده المبتل، يتسرب الماء البارد من أسفل حذائه القديم ، وفي الوقت ذاته، كما لو ان الأمر يتعلق بلقطة سينمائية مركبة، تنعكس الأشعة على زجاج محل قريب لبيع الأحذية، فيظهر الحذاء ويقرر شراؤه .

المسألة معقدة قليلا، بما نوع من الصناعة والافتعال، لكن هذه البداية بدت للكاتب افضل من تلك الواقعية جدا. .

غوصا في الهامشي، سيضيف أحداثا إلى قصته: يسير في الشارع، وينظر إلى أحذية الناس ويقارنها بحذائه. ويظل يحلم بنورا تسير أمامه عارية ، لا تنتعل سواه ، والشعر يسقط على الظهر .

” وذات يوم، كنت في المتزل، مسحته بعناية ووضعت. ثم ابتعدت عنه قليلا وفكرتُ بعد التأمل: كيف سيكون مصيري في الحياة دونه؟ سمعت طرقا خفيفا على الباب، فتحت فانزلت صديقي إلى الداخل دون أن يُسلم، اتجه نحو الداخل مباشرة، حمل الحذاء بين يديه لبرهة فخفت أن يطلب استعارته مني ، لكنه وضعه برفق ومحبة ، وانبرى يحدثنى ببطء وهدوء عن الأحذية ، لوقت طويل، حتى سقط الظلام دون أن نحس به: عددَ مزايا وأنواع الأحذية وتاريخها ولم ينس نظرية التطور الحذائي. . . وحين انتهى، رفعه من جديد، ثم هكذا، بعينين مغمضتين، وفرح طفولي، ودون حياء، فاجأته الحكمة فسماه: حذاء المجتمع المدني. ”

الآن، وقد اطمأن الكاتب لمسار القصة، ينبغي أن يسعى للنهاية. كان قد حباُ نهاية مأساوية لحكايته يصبح الحذاء فيها نسيا منسيا: هو داخل الغرفة يسمع الموسيقى والحذاء في القمامة تأكله الرطوبة، أو مرميا في حديقة المتزل معبرا عن تفاهة الحياة التي تمر دون أن تلوح حتى بيديها. لكنه ظل باحثا عن نهاية أكثر حرارة وجدوى، كأن يكون الحذاء بطل هذه الخرافة سببا في تغيير حياة الكاتب، لذلك سهر أياما يبحث عن تخريجة لذلك، ثم اهتدى إلى أن ما يغير الإنسان هو اقترابه من الموت، فقرر أن يجعل نهاية القصة هكذا: يدخل ذات مساء إلى الغرفة فيجد الحذاء مرميا في العتمة، لكنه لم يفتن إلى كون الكومة ثعبان كبير. . .

في مقر الحزب، سيقراً بعض رفاقه القصة ويتفكّهون بمزاجه الجامح وفكره البرجوازي الصغير. يشبعونه وقصته نقداً سياسياً مبرزين تفاهتها لأنها بعيدة عن الواقع، ويؤكدون أن الأساسي في الحياة، هو أن يمزق المناظر حذاءه جرياً وراء قضية. أما صديقه الشاعر فسيقاطعه مدى الحياة لأنه أشار إليه في القصة باقتضاب لا يلائم قيمته الأدبية.

ونورا، الفتاة التي قبلها على علاقتها، ستتركه كي لا يجعل من المشترك بينهما الأكثر إخراجاً لها، موضوعاً لقصصه القادمة.

في مقهى بعيدة، في مدينة لم يطأها الكاتب قط، سيجلس شاب على كرسي في مقهى ما، يقرأ القصة ويعيدها، يحمل القلم ويحاول محاكاتها، يحاول تبين الخيوط الفاصلة بين الحقيقة والوهم، ويتمنى لو التقى كاتب القصة الموهوب. هذا الذي يعرف كيف يتوغل في الوجود التاوي.

لكن الكاتب، بعد تفكير عميق، قرر ألا يكتب حكايته، لأنها تجلب له نارا قريبة، وإن كانت تسقيه برداً وسلاماً بعيدين لا يدركهما.

ما تفعله بنا الحروف "المعرفة حزن" بايرون

1

لا يتعبك كالوصول شيء. تتعجله على الدوام لكن رحيقه يُدوي حين تصل. تُدحرج خطاك دوماً باتجاه الأمكنة المعتادة التي لم تستطع أن تكبح جماحها رغم السنين، تُسرع لتصل ثم تتعجل الرحيل. أي مارد يجري منك مجرى الأعصاب؟

حين نلّقاك نذكرك بالطريق: برزخٌ ضروري للكائن. تُحرّك رأسك المتعب علامة الموافقة ثم تسير. نعلم أنك تسخر منا في داخلك. تسخر من رؤيتنا البسيطة للحياة لأننا لا ندرك شيئاً عن وجود الإنسان. . . .

لا تتركك المدينة تهنأ أبداً. من زاوية إلى أخرى ، يحل الليل فتقصد الشقة التي تتقاسم مع رجل لا يُكلمك إلا لماماً، تتفرج على قتلى الحروب وأجساد المغنيات، وعضلات الهولويديين وتنام. . .

قلتُ لنا ذات يوم عن مسار حياتك : عن خوفك الدائم غير المبرر من أشياء كثيرة انطبعت فيك منذ زمن، عن وهمك الذي يُتعبك كلما انسل إلى القلب، قلتَ كم تُدغدغ المضارع حرصاً على توازنك المهش، ثم قلتُ لنا عن شقتك الصغيرة، أشياء صغيرة تربط معها علاقة خاصة جداً: عودك وتلفازك وكتبك المتناثرة وقطنتك الصغيرة. .

كالعادة تصحو على صوت المنبه فيجيء شريط أيامك الذي ما استطعت يوماً نه فكاك: وجبة باردة لا تعرف كيف تجعل السخونة تغزوها، الوهم الذي ينسل إلى ما تحت القميص، يدغدغ أعضائك، أحصنة كثيرة تتسلل إلى الصدر بعده ولا تعرف كيف تكبحها ، فصول ضيقة من الطفولة تمرب منك . إحساسك باليتم الوجودي كلما ربح شديدة هوجاء تعبر شارع المدينة ويكون الضوء كاب. .

في المقهى تلوذ بنفسك، تمرب إلى صمتنا حين نحدثك ولا تجيب. تسألنا كمن تلسعه سياط الهلوسة: من يمسح مخاط الجداول؟ من يمسح دمع الكائنات الفانية؟

ونحن معك، كم تتفنن في استدعاء طفولتك، ملاذك الأخير رغم كل شيء. تترحل في كل الزوايا ، تمشي ساهما يكاد الناظر يرى أفكارك وهي تسعى، ثم تحكي لنا بغزارة عن صباحاتك التي تستيقظ فيها صافي الدهن والسريرة فتأتيك الصور والحروف لذيدة، عن الشاي الذي نُصر عليه في مقهى " التمور " كي تقبض على كائنات تبثها في نصوصك الجديدة، عن الأمسيات الباردة حين يسقط الضوء الخفيض على الشارع فتفكر في الحياة من جديد لكن بلدة وتوقن أن "على هذه الأرض ما يستحق الحياة". . .

تصمت فتهرب إلى الوجوم احتراماً، توشك أن تنطق بشيء ما لكنك تحجم، ثم تفيض فتحدثنا عن هذه المدينة المغروسة في الصحراء: أي جني رمى بها وسط هذا اليباب؟ وأي جني رمى بك بين أسوارها. تحكي عن كل شيء في المدينة: الوجوه المكرورة ، الأسماء نفسها، الحركات نفسها، كل شيء ساقط في الرتابة. . .

قبل أن نضجر من تشتت الخيوط عند بوابة حياتك، تقفز إلى المغزى فتحكي لنا عن مهمتك: القول. . .
تخذرنا منه ، فالإنسان لا يعرف مأساوية مصيره حين يتبلى بالقول إلا في النهاية، لا يعرف أن الريح تلعب به لا معه، يتخبط في دروب الحياة كفأرٍ يتيم في البداية، ثم يصل إلى الخلاصة: يُدرك أن كلامه لا يُسمِن وأنه لن يخلد ولاهم يكتثبون .

تركبنا الحيرة، نحاول التسرية عنك لكنك تستقيم، تقول أن لمصيرك مع القول وجهان: إما أن تتواطأ مع الحياة، وتعرف أن أصل مهمتك أن تتكلم وتمضي، وإما أن تنتحر. . .

-أما أنا فلن أنتحر، ولن أتواطأ. أنا صحيح متعب وحيران -لن أكابر- لكنني لم أفقد بعدُ البوصلة. . .

تلتفت يمينا وشمالا خوفا من أن يراك زبائن المقهى، أو يسمعوا صوتك القوي الذي يكسر صمت المكان، ثم نتنفس عميقا حين تُدرك أنك كائن مفترض، وأنا نصنعك للتسرية عن أنفسنا، نحن جماعة الحمقى، ممن يلهيهم القول ويفسد عليهم حياتهم. نعلم حقيقتك حين نرى الناس يتابعون "الريال" و"البارصة" كأنك عدم. رغم ذلك نتابع بحرص شديد كلامك :

- "اللِّي عَيَّا يُشَدُّ الأرض" كما يقول أبي، وأنا على الأرض. الأرض علي والقلق، أحس الغثيان وتبغي معدتي المهروب، بين المنزل والمقهى. أحاول أن أهرب من الصور. لا أسأل عن أي شيء: لا عن طيف الأقلام، لا جدوى الأحلام. مذاق الحروف يبدو لي بطعم "الببوش"، تدهمني الرائحة فيطلع جوفي إلى الحلقوم وأشد الأرض. . .

نكنتم الضحك، نصنع وجه الجادين محاولين التسلسل مزيدا إلى عُش روحك، تفسر سُهد الليالي، حين تخرج عليك كائنات ملثمة كي تُطعمك الحروف، حين يضع رجل ما، لا تأتيك ملامحه الآن، أمامك حزمة الجرائد والكتب، يُخرج الملعقة من جيبه ويبدأ في إطعامك الحروف، تظل تغرفها وتشرب طعمها فتتهيج في داخلك الأنهار والأشجار وخط الاستواء ومولانا جلال الدين وأبو العتاهية وأبو العلاء المعري. تركلك كل حمير الوجود، هناك بالضبط، في منطقة الكتابة من الجسد: تماما تحت الحزام. .

2

نتركك ونمضي متعللين بانشغال ما، وتظل في المقهى ذاتها، حيث تبرد قهوتك، -كما حكيت وتحكي- ويمر المتسول ذاته للمرة العاشرة على طاولتك، تتذمر ثم تفكر هل أنت الرجل نفسه الذي مر عليه المتسول؟ هل أنا الرجل ذاته الذي ابتسم في وجه نفسه حين نظر في مرآة مضطربة؟ تنظر إلى الطاولة المجاورة حيث يجلس رجلان يثرثران عن المباني وغلاء الإسمنت، يضحك أحدهما، فتحزن لأنه لا يتمتع بهبة النسيان والتماهي، لكونه لا يعرف أنه واحد من شخوص مسرحيتك القادمة، ثم تقول أن الحياة لا تستقيم بل تتعرج .

ونعود بعد أن نشتاقي إلى خيالك من جديد، هكذا نحن، نكاد نشبه وجلك وترددك القاتل، لا تستطيع الصبر على الكلام، تحدثنا عن كتابك الجديد، عن الواقعي والخيالي. . تريد أن تكتب عن المرأة حين يسيل لعاب أصحاب الشوارب المعقودة. تصمت لبرهة لتلتقط -كأنما الحياة تبعث إليك بالرسائل- ما قاله رجل ضخم البطن بشكل يُشير الشفقة لامرأة تمر أمامه بعد أن التفت يمينا ويسارا شمالا وجنوبا .
-عينيك ألا حَرَّشِين. كيعذبوني .

يقولها ويعود إلى الالتفات بخرج ثم يطلق ضحكة فضضى الشمس صلته ويبدو شاربه كبيرا بشكل مبالغ فيه. . .

قلتَ لنا أنه أحدَ شخوص مسرحيتك القادمة، "لاشك أنه من المستثمرين الجدد ، ممن استفادوا من وضع المدينة الصغيرة، يصنعون صورة الغني بقرها، جديد ولا شك فأنا لم أره من قبل. تكاثروا كالعشب الضار مؤخرًا

وضاقت بهم المقاهي. هو مادة دسمة لنص ولا شك، لكن الحروف بطعم الببوش ولا أستطيعها. أريد أن أكتب عن شيء لا يموت. . . . "

في المقهى ذاتها، حين غادرناك ذاك المساء، بدأت في الكتابة، كما قرأنا لك في ما بعد، عن رجل مخبول يفكر في معنى الحياة على الدوام، موقنا أنها سلسلة إشارات مترابطة، وحين تسمع كلام البدين تتأمل في مغزاه ، وفي علاقته بوضع الرجل، هذا الذي على الدوام يسير في الأسواق والشوارع ليلتقط مفردات يعتقد أنها ستؤثر في مسار حياته. هذا الرجل يسكن لوحده، ولا ينفك يتأمل مغزى أي شيء مهمما كانت بساطته، يحب النساء ويرتعش للجمال، لكنه يتمنى ألا يُضطر للزواج، لأنه يقتل الحب. ويطمح في حياة هادئة مع رفيقة لا تسكن معه، بل تعيش في مدينة قريبة كي لا يملان بعضيهما: تجيئه في الآحاد، ثم تغادر طوال الأسبوع . عملها يقتضي أن تعد تقاريرًا دائمة لمدير مُسن مُصاب بالسكري ، ينحني أمام رؤسائه بخشوع، ويفكر في ابنه الذي أوشك أن يتخرج، قلقًا على مستقبله ومُرتابًا، وبناته الخمسة اللواتي كثرت مطالبهن، دون أن يظهر زوج واحد .

ثم يسترسل الرجل المخبول ويقول أن أجمل حب هو البعيد : منفصلين وملتقي مرة في الأسبوع بعد أن يشتعل الشوق بيننا . أجمل الأشياء ما ينتظر الحدوث. . . .

تظل المرأة طوال الأسبوع تعد التقارير، ثم يحاول المدير إغواها فترفض لأنها مرتبطة. تخرج من مكتبه بعصبية، فيجلس على كرسيه، ويفكر أنه أخطأ كثيرًا. يخاف أن تشي به، ولا يعرف هل يرضيها أم يهددها كي لا تشي .

وهي ، تذهب إلى المتزل، فتتذكر صديقها وأحدًا القادم ، ثم تحس ندما خفيًا لأنها لم تستجب للمدير ، وتتساءل إلى أي مدى يُخلص لها الصديق وهما مرتبطان بهذا الشكل؟

ودون أن تفسر لنا لم تُعاني شخوص قصصك كل هذا الفصام، دون أن تعترف أنك الرجل، وأن الفتاة ليست سوى سعاد التي تخاف الارتباط بها كي لا تسقط في حفرة الالتزام وتربية الأولاد، تسترسل ونحن آدان مفتوحة: "قد يتسامح الرجل مع ندمها قليلًا فهو سمة البشر، لكن على ألا يتحول إلى إعادة نظر في الأمر. إنه يُفضل أن تتجهز للقاءه ، بسرعة وشوق، حتى أن المشط سيسقط من يدها من اللذة والارتباك وهي ترتب شعرها .

تأتيه في الأحد ، كالعادة، فتصعد الدرج، لديها مفتاحها، يجدها جاهزة. "

عند هذا الحد ينتهي تأملك، وانغراسنا في حكايتك المغرقة في التفاصيل ، هبتك التي نحسدك عليها، فلسوف يتكلم المستثمر صاحب البطن الضخم من جديد فتتابع ما يقول وتدونه. . . .

في العمارة ذاتها، كما يحدث وسيحدث ، حيث يسرق شخص غير لطيف مصابيح الدرج، في المنزل ذاته، في الغرفة ذاتها، دائما دائما دائما، يُرهقك الظل اليسير وراء المزهريّة، تحاول التوقف عن مضاهاة عينيك بعيني النمر في الفيلم الوثائقي، تحاول التوقف عن صناعة المثلثات بزهور الستارة التي تغطي النافذة، وتشم صورة المرأة التي تسكن في المدينة القريبة في كل مثلث ، تكاد لا تفارقك ذكرى ذلك اليوم الذي تذرتما فيه بالستارة لأنكما تناومتما وأنتما تطلان من النافذة على أضواء المدينة الكافية، تشتهي جسد امرأة المسلسل الذي يشبه جسدها حين تلمس

الموج بنهديها فيرتجف الموج من الشبق، تغلق التلفاز و تطل من النافذة فترى الطريق وأضواء المدينة اليسيرة، تعود إلى مكانك وتفكر أن هذا آخر عهد لك بالقول. تسال نفسك : هل أنا المقاول ذاته؟هل أنا الرجل المخبول أم المدير؟ومن هي الفتاة التي كلمها صاحب البطن الغليظ أليست فتاتي؟

نغتم كثيرا لوجودك التالف، نفكر أيضا في الكتابة عنك و عن كل الشخصوص بصيغة الغياب كي نقتلهم، كي لا تكتئب، كي نشاركك الهم، نجتمع لتدارس أمرك في غيابك، نحاول إقناعك بالعدول عن التفكير في كل شيء دفعة واحدة، لكننا نجد أن كل الكلام عاديا، فجأة قيل كل الكلام. . تميج الرائحة اللعينة وتهاجمنا، ونعرف أننا لن نقدر على مساعدتك، نعرف أن الوهم لن ييزغ من جديد وأنتك انحدرت . . صافي. .
نعرف مصيرك فنحزن، ثم خوفا من أن تفعلها بنا الأوراق ونحن لا نزال صغارا(حليب أمهاتنا في افواهنا) نهرب ولا نعود للقائك. .

دموع القمر

1

(قَمَرِي الحَزِينِ)

قَمَرِي اللِّيمُونِي

قَمَرِي المُتَهَدِّلِ الشَّارِفِ كَحَزْبٍ سِيَّاسِي

قَمَرِي يَطْوِي حُزْنَهُ فِي نَسْجِ الزَّرَّابِي

وَأَغَانِي نَائِسِي عَجْرَمٍ أَوْ رُوبِي

يَبْحَثُ عَنِ ظِلْمَةٍ يُخَبِّئُ فِيهَا شَهْوَتَهُ لِلدَّانِئِيلِ وَالْفِضَّةِ وَالْبُونَجُورِ مَسِيو

قَمَرِي لَيْمُونِي مَا كَايْحَشْنَمُ
حَاوَلْتُ عَلَيْهِ وَ لَمْ يُحَاوَلْ عَلَيَّ
جَاءَ ابْنُ عَمِّهِ مِنْ فَرَنْسَا وَقَالَ لَهُ تَتَزَوَّجُ بِوَرَقٍ أَبْيَضٍ فَوَافِقٌ وَسَافِرٌ
يَكُونُ مَا يَكُونُ
يَكُونُ حَتَّى يَكُونُ
يَكُونُ حَلِيْبًا رَائِبًا أَوْ سَيِّدِي حِرَازِمَ
مُشَاتِ السُّكْرَةِ وَجَاتِ الْفِكْرَةِ
يَالَيْلِي يَا عَيْنِي
قَمَرِي اللَّيْمُونِي رَجَعْتُ مِنْ فَرَنْسَا
جَالِسٌ عَلَى حَجِيرَاتِ الْوَادِ وَالْفَرَخِ طَارَ أَوْ خَلَا لِيهِ الْهَمُّ
قَمَرِي أَمْسَكْنِي مِنْ بَابِ الْجَمْرَةِ وَقَالَ لَيْلِيَا

لَنْ تَكُونَ قَمْرًا وَلَا "دِيكَابَرِيُو" يَا حَبِيْبِي فَكُنْ مَعِي
كُنْ نَفْسَكَ ، شَهْوَتَكَ لِلْحُلْمِ وَالضَّبَابِ
شَهْوَتَكَ لِلْفَائِفِ سَتَارِزُ
شَهْوَتَكَ لِلْفَاسُوخِ وَالْحِكَايَةِ
كُنْ زُورُو ، كُنْ عَادِلَ إِمَامٍ ،
كُنْ الْحَجَّاجَ أَوْ الْحَجَّامَ أَوْ صَيَّادَ النَّعَامِ
أَنْتَ تَلْقَاهَا تَلْقَاهَا
وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَنْامَ
أُرِيدُ أَنْ أَنْامَ (

2

هذا رجل تسكن الخرافة حمضه النووي. يرتل الأذكار صباح مساء . يستعيد من شر الوسواس الخناس ومن النفاتات في العقد. يغسل يديه قبل النوم وبعدها بعطر لأنه لا يعلم أين باتت يده. . . .

وهذه امرأة تصنع الكسكس بيد الموتى. قالت امرأة بلغت أرذل العمر تبغي أن تدفع عن نفسها قهمة لم يلق بها أحد: إنهن كافات ياوليدي. تخرجن ليلاً إلى المقبرة قبل الفجر، تخرج الواحدة منهن ، في الليلة الرابعة عشرة حين يكتمل القمر، تنفش شعرها وتسير ، عارية بدون سروال .

ما الذي سيخطر ببال امرأة تمشي في الطريق ليلاً تحت جناح القمر عارية كما ولدت؟ ألن تحس البرد؟ ألن ينتابها الخوف أو تغازل الريح شعر عانتها؟ ألن تحلم بلطف والحلم؟ ألن تحلم بتفاحتها بين اليدين؟ ألن يراها المقدم أو المؤذن أو الفقيه ؟

تقول العجوز، المرأة ياولدي لا تلتفت . لا تنظر خلفها لأن الموتى يخرجون من قبورهم ليكوا غزير الدموع، إذا أحرقها الفضول والتفتت تكون بغلة القبور. وحين تصل المقبرة، تضع حملها الثقيل ، ثم تبدأ الحفر. تحفر وتحفر، والليل سكون ، الحشرات منتشرة والقمر مكتمل

حين تعري القبر الطري، تُخرج جثة رجل مات في وقت قريب ، بيديه تُكسِكِسُ عشاءً غالياً للرجال الذين يحسبون أنفسهم شيئاً، لا تُحضر ماءً كي تحرك به طعامها لأن القمر الحزين يبكي فيسقي طعامها . و العجوز تقول ليتذاك يبكي ويسقط القمر الحزين فتملاً الظلمة القرية. . . .

3

أريد أن أنام لكن الستاتي لا يتركني . يغني عن" الفيزا والبأسبور" دون رحمة وأنا مريض . كهرباء الضرس تصعقني. المسجلة التي تحسج في الشقة المجاورة لا تتوقف. وأعلم أن صاحبة الشقة امرأة وحيدة مطلقة . وأعرف أن طليقها حفار القبور الذي تطل على مقبرته العمارة. وأعرف أن الطالعين إلى هذه العمارة أكثر من ساكنيها ، وأعرف أنها تكسكس بيد الموتى عشاء طليقها وأزواج صاحباتها. والعمارة ضيقة كقفص وصدى الأغنية الستاتية يردده الدرج كأنما في باحة الشعور داخل مخي. وعمودي أنت يا جسدي كقصيدة . وأحاول النوم وأعد حتى المليون كل نعاج العالم كما علمتني معلمتي في الروض، لكن النوم"لا يحاولني" .

وفي الصباح أسأل عن المرأة- كما لوأني لا أعرف- فيقول لي البقال، متوعدا ، أنها تقرأ الكف وتشوف. لكنها لا تصنع حسب علمه كسكسا ولا تبيعه بالسوم الغالي ولا تعاقب الرجال اللايطيعون. لكنها تسير عارية سوى في شقتها التي تطل على حانوته، حين ينتصف النهار القائض ويتشاءب على الكونطورار، حين تفتح النوافذ وتسير وسط الصالة عارية، تجيء وتذهب، تذهب وتجيء فيطير نعاسه ويفتح قنينات سيدي حرازم ويرش الماء على وجهه ورأسه الأصلع فتبتل علب الوقيد. . . .

علمها عنده وهو يغسل اليدين كل يوم عشرا ويخاف أن يُدركه بلاءها وهو على غير وضوء، لكن البلاء الأكبر ، قال لي، هو زوجها (يقصد طليقها): يخاف عليها من ثوبها الحريري ومن صاكها الأحمر ومن الروج الذي تضع على شفيتها، وقد أقسم لبعض أصدقائه أغلظ الإيمان أن من فكر في الاقتراب منها لابد ميت . .
و المرأة، يا للهول، حين تنزل إلى الشارع ، تلبس الجيتر العاصف المثير مثل بطلات الفيديو كليب . شفتاها حمراوتان خمرية العينين . تسلم ذات اليمين وذات الشمال، ضحكاتها البدوية وبياضها يجرح سمري لكن طليقها حفار قبور وصاحب الحانوت بالضرسة سهران. . .

4

(أمسكني قمري من يدي
وقادني إلى باب الفرج
وقال لن تكون سوى مشاءً أو سنام بعير
أمسكني من يدي وقادني إلى باب الطهر
وقال لن تكون سوى غيمة
أمسكني من يدي
وقادني إلى باب العرفان
وقال لن تكون أبداً بطلا
لن تكون يا حبيبي نجمة)

5

ثم كان أن قررت يوماً ارتداء ملامح الوداعة والاتجاه نحو باب هذه السيدة التي تمنح الناس الأمل وتغطي على كل الروائح بالبخور. قلت لاشك سترحب بي ظنا منها أي زبون فأنا أنسل إلى شقتي في الغالب دون أن تراني ولا أحدث أية ضجة. ستعذر لي كثيرا حين تعرف مرادي و لن تغلق الباب في وجهي، لن تنبح أو تنهق وسنصبح أصدقاء وأتقي شرها. ثم يكون ما يكون ويكون حتى يكون :

يكون يا سادتي الكرام هذا الشيء في مستقبل لا يتوقعه أحد غيري :

" جسدها الهادئ على السرير لا يثيرني، سأكون قد شبعت، كل بذخها لن يحرك في أية مشاعر. ، كما يحدث لفقير ربح اللوطو فجأة فعفت نفسه عن الأكل .

قبلها، لم أكن لأطولها، تكون منيعة، تتوغل وتلوح كسماء عسيرة، ثم تكون معي فجأة على السرير، وتلك الوضعية المثيرة للشفة، وضعها وهي تحاول الإغراء. . تستحلفني بكل السحرة والمشعوذين، وتقول أن طليقها لن يجرؤ على الاقتراب مني لأنه أكل لسان حمار بالتمام وقصعة كسكس لكنني لا أقرها، سأهم بها كما هم بي ثم أرى أنني أقوى. . "

6

دائما ألعب العشرة، أحسب نفسي راثقا وعائقا، لكنني لم أحمن تلك الليلة أن للأفكار روائح عطنة. دائما يسبقني لساني وأندم بعدها وأقول : مالك يا أخي والناس؟كنت مارا قرب حانوت البقال ، حين رأيته مهموما حزينا، حاولت التسرية عنه دون أن أعلم سبب حزنه، بدأت أحكي له حكايتي مع تلك العروبية التي علمتني المثل المصري "رضينا بالهم والهم مش راضي بينا"، تلك التي تركتني وسافرت مع أحد الحارقين. . وحين استرسلت وكاد يموت من الضجر، قال لي : يا أخي، يا أخي، ألا تشبع من الكلام؟هل أنت "مزين بغداد"؟اسكت. خجيء كلامك لوقت آخر فهذا زمن صعب، وحين أردت التعقيب أمسكني من يدي، ادخلني حانوته ، ويالهول ما رأيت.

يا للهول، ذهببت السكره وجاءت الفكرة. وأنا ثقيل كالزلزلة. ثقيل بهم الليل والنهار وذنوب لا أحسن تبريره يقرضني. الغرفة ضيقة علي وحفار القبور أمام الباب. هو يُقسم أغلظ الأيامن أنني أعاشرها وأنا أحلف بكل الصالحين أنني بريء، وأنني، حين طرقت بابها، كنت أريد القليل من الفاسوخ لأن الضرسه تُحرق أعصابي. .

ويذهب ويعود ، على السلم يذهب ويعود. يراني حليبا مسكوبا، يراني قطعة ثوب سيمسح بها مخاطه، تتراكب الصور أمامي: المقبرة ، المرأة، السلم، المصباح، ضحكات مول الحانوت، سيدي حرازم، الديدن الطريتين اللتين رأيت بأمر عيني في حانوت البقال حين عنفني وسماني "مزين بغداد"دون تفسير. أقفل الباب فأبكي ويُعاودني ألم الضرس. . .

7

قَمَرِي الْجَمِيلِ
قَمَرِي الْحَالِمِ بِالْفَيْزَا
قَمَرِي فِي الْمَحَطَّةِ يَنْتَظِرُ
يُطَرِّقُ الْمَسْكَةَ فَالزُّنْقَا
اتَّصَلَ بِي وَقَالَ تَعَالَ
نَعَمْ يَا حَبِيبِي نَعَمْ
أُرِيدُ الْعَيْشَ مَعَكَ
بِدُونِكَ أَمُوتِ وَفَرِّسَا وَهَمِي
قَمَرِي فِي الْمَحَطَّةِ وَحَفَارُ الْقُبُورِ عَلَى السَّلْمِ يَنْتَظِرُ . . .